طريق حجاج الشام ومصر

منذ الفتح الإسلامى

إلى منتصف

القرن السابع الهجري

د . سليمان عبد الغنى مالكى

نهدف فى هذا المقال إلى استخلاص وصف لطريق الحجاج القادمين إلى الأراضى المقدسة من الشام ومن مصر ، من المصادر الأولية للتاريخ الاسلامى ، وما كان يتم من تحسين للخدمات فى هذين الطريقين ، ثم ما كان يقع على حجاج هذين الطريقين من اعتداءات من بعض القبائل البدوية . ونحن نضع الصورة التاريخية المستقاة من أوثق المصادر لهذين الطريقين جنبا إلى جنب لنتيح للقارئ فرصة المقارنة والاطلاع على القدر الكبير من التشابه بين الطريقين ، والتنبه إلى الفوارق الضئيلة التى ميزت واحدا منها على الآخر ، ورد هذه الفروق إلى ظروفها التاريخية ، والأسباب الواقعية التى دعت إليها .

أولا : طريق حجاج الشام :

أ ـ وصف الطريق :

يخرج الركب الشامى من مدينة دمشق حيث يتجمع الحجاج فى هذه المدينة ، ثم يتجهون إلى مكان يسمى الكسوة ، وهى قرية تنزل فيها القوافل بعد خروجها من دمشق وتكثر فيها الأنهار ويتزودون منها بالماء (١) ويرحل الركب متجهاً إلى مكان يسمى الصنين ويقع فى أوائل حوران (٢) ثم يرحلون إلى درعا ، وهى قرية صغيرة يكثر فيها الماء ، ومن هنا يتجهون إلى بُصرى ، وهى قرية صغيرة يقيمون فيها ثلاثة أيام . (٣) وقد اشتهرت عند العرب قديما ، وقد مر بها القائد خالد بن الوليد حينما اتجه من العراق لَمَدد أهل الشام . (٤) ثم يرحل الركب إلى الزرقاء (٥) ، وبعدها إلى زيزا ، حيث يقيمون فيها ثلاثة أيام وبها أسواق ، وتوجد فيها برك لسقيا الحجاج ، وزيزا فى اللغة هى المكان المرتفع (٦) ، ثم يرتحل الركب إلى الكرك ، وتكثر فيه الأودية ، ويوجد فيه بعض الآبار ، ثم يرحل الركب إلى الحسا ، وهى تقع بين الكرك ومعان ، فيرد الحجاج ماءها ومنها يرحلون إلى معان .

ومن المعلوم أن معان تقع فى طرف بادية الشام ، ويقال إنها بوابة الحجاز ، ومعان مدينة قديمة يعرفها العرب منذ الجاهلية ، وفيها موارد للمياه (٧) ثم يرحل الركب حتى يصل الى العقبة المعروفة بعقبة الصوان ، وهى عديمة الماء ، ولا يستطيع الحاج المكوث فيها بسبب صعوبة الإقامة فيها (٨) .

ثم يرحل الركب الى ذات حج ، وفيها ماء عذب يستقى منه الحجاج ، ثم يستعدون للرحيل إلى تبوك ، ومنها يستعدون للمغادرة الكبرى حيث انهم يحملون معهم من ماء تبوك وهو ماء يسرع فساده إذا حصل ويتغير طعمه ، متجهين إلى العلا ، وتشتهر العلا بكثرة مياهها ، ويوجد بها نخل وزرع ، ويتزودون منها بالماء بعد إقامتهم بها يومين مستعدين للرحيل إلى هدية ، ولا يقيمون فيها فترة طويلة لرداءة مائها ، ثم يرحلون منها إلى عيون حمزة ، حيث يستعدون لدخول المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فيتمتع الحجاج بالزيارة ويقيمون بالمدينة عشرة أيام ويخرجون منها إلى ذى الحليفة ، وهى ميقات أهل المدينة بينها وبين المدينة ستة أميال ، ثم يتجه الحجاج إلى وادى الصفراء ويشقون هذا الوادى ، ثم يرحلون الى بدر ، حيث يلتقون مع الركب المصرى متجهين إلى مكة .(٩) .

ب ـ الخدمات :

من المعلوم أن الخلفاء الراشدين والخلفاء الأوائل من الدولة الأموية لم يهتموا بطرق الحج ، فلم

يقدموا لهم أية خدمات فيها . ولقد بدأ الاهتمام بطرق الحج فى سنة ٧٩ هـ فى خلافة عبد الملك بن مروان بسبب الأمطار التى ألحقت ضررا بالحجاج ، وبكلأعراب القاطنين القرى المجاورة بمكة ، فقد أرسل عبد الملك بن مروان الى عامله فى مكة أموالا ينفقها لكل من تضرر من جرّاء هذه الأمطار(١٠) .

وفى سنة ٩١ هـ حج بالناس الوليد بن عبد الملك فخرج من دمشق وكهتم بطريق الركب الشامى ، وكان يوزع الأموال على القبائل التى تقطن على طريق الركب الشامى ، وأمر بحفر بعض الآبار ، كما أنه وزع دقيقا على سكان القرى الواقعة على طريق الركبةالشامى (١١) .

وفى سنة ٩٧ هـ حج بالناس سليمان بن عبد الملك ، وقد أمر من معه بتوزيع الطعام على الحجاج ، ويقال إنه حمل طعاما على سبعمائة بعير ووزعه على الحجاج (١٢) .

وفى سنة ٩٩هـ حينما بُويع بالخلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اهتم بطريق الركب الشامى ، وحفر آبارا فى مناطق مختلفة على طول هذا الطريق (١٣) .

ومنذ سنة ١٠٠ هـ إلى سنة ١٣٤هـ لم تذكر لنا المصادر أية خدمات قُدمت للحجاج فى هذه الفترة ، ولكن فى سنة ١٣٥هـ أمر الخليفة العباسى أبو العباس السفاح بتمهيد طريق الركب الشامى وأمر بحفر آبار لسقيا الحجاج (١٤) .

وفى سنة١٣٧هـ حج أبو جعفر المنصور بالناس ، وفى طريق عودته عاد مع الركب الشامى وأمر بإصلاح طريق الركب الشامى ، وأمر ببناء المساجد فيه ، وواصل العودة مع الركب الشامى حتى دخل بيت المقدس ، ثم عاد إلى العراق (١١) .

وفى سنة ١٤١هـ أمر أبو جعفر المنصور واليه فى الشام ، صالح بن على بن عبدالله بن العباس بتعمير خطى الركب الشامى ، وبعمل محطات لاستقبال ركب الحج الشامى (١٦) .

وفى سنة ١٤٨هـ اهتم أبو جعفر المنصور بحفر الآبار بين تبوك والعلا على طريق ركب الحجّاج الشامى (١٧) .

وفى سنة ١٦٦هـ أمر الخليفة المهدى بعمل محطات للبريد فى طريق الركب الشامى ، وأمر صاحب البريد بشراء بغال وإبل ، يقوم بتوزيعها على كافة طرق البريد (١٨) .

وفى سنة ١٧٠هـ أمر الخليفة هارون الرشيد بحفر الآبار فى طريق ركب الحاج الشامى (١٩) وفى سنة ٢٠٩هـ كتب أمير الحج صالح بن العباس إلى الخليفة المأمون يستأذنه فى عمل البرك فى طريق الحاج الشامى ، فوافقه على ذلك وطلب منه أن يجدد بناء المحطات ، وأن يقوم بحفر الآبار وإصلاح القديم منها (٢٠) .

وفى سنة ٣٦٦هـ حجّت جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل ، وقدمت خدمات فى طريق الحاج الشامى ، فأمرت ببناء البرك بين معان وتبوك ، وأمرت بحفر الآبار بين رابغ وعسفان ،

وقامت بتوزيع دنانير الذهب على الأعراب القاطنين بطريق الحاج الشامى ، كما أسقت الحجاج بطريق الركب الشامى الماء بالسكر والثلج ، وقامت بأعمال خيرية جليلة (٢١) .

وفى سنة ٥٥٥هـ حج نور الدين محمود بن زنكى سالكا طريق الحاج الشامى ، وأمر بتوزيع صدقات على سكان هذا الطريق (٢١) . ويمكن اعتبار ما قام به نور الدين آخر الخدمات التى قدمت فى طريق الركب الشامى خلال الفترة الزمنية التى يهتم بها هذا البحث .

جـ : اعتداءات القبائل :

لا تشير المصادر إلى وقوع اعتداءات من القبائل أو الفرق المختلفة على حجاج طريق الركب الشامى إلاّ بعد سنة ٣٤٤هـ .

ففى سنة ٢٤٥هـ بَدَأ وليُ عهد الخليفة العباسى الموفق أحمد يحرض القبكتل القاطنة فى شمال الحجاز ضد ابن طولون . ففى هذه السنة اعتدت القبائل على ركب الحاج الشامى عند مكان يسمى وادى **الصفراء** وطلبوا من الحجاج دفع الضرائب ، فأعطوهم الضرائب التى طلبوها ، فسمحوا لهم بإكمال سيرهم الى مكة (٢٣) .

وفى سنة ٢٦٥هـ اعتدت القبائل العربية التى تسكن شمال المدينة على ركب الحاج الشامى ، وقطعوا عنهم الطريق ونهبوا الحجاج ، وحينما علم الخليفة بذلك ، ولىَّ محمد بن الساج عاملا له لتوفير الأمن وسلامة الحجاج فى كل طرق الحج ، ولقد استطاع ابن الساج القضاء على الفتنة التى قام بها الأعراب (٢٤) .

وفى سنة ٢٦٩ هـ قام ابن الساج بحملة مشددة قتل فيها رؤساء القبائل التى تقف فى طريق الحاج الشامى ، وأرسل برئيسهم إلى بغداد (٢٥) .

وفى سنة ٢٩٤ هـ تعرض القرامطة لطريق الحاج الشامى ، واعتدوا عليه وقاموا بطمر الآبار وغيروا معالم الطريق (٢٦) .

وفى سنة ٣٤٣ هـ تعرض ركب الحاج الشامى لاعتداء بنى سليم من قبيلة حرب وسلبوك أموال الحجاج وقتلوا أمير الركب (٢٧) .

وفى سنة ٣٥٥هـ اعتدت قبائل الرحلة من قبيلة حرب على الركب الشامى وسلبوا أموالهم ، وفرضوا عليهم المكوس التى لم تدفع من قبل ، وأخيرا دفعوا ضريبة سنتين (٢٨) .

وبعد أن تم للدولة الفاطمية السيطرة على مصر والشام اهتم المعز لدين الله الفاطمى بحماية ركب الحجاج ، فأرسل معهم فرقا عسكرية لحمايتهم واستمرت هذه الفرق تخرج مع الحجاج فى كل عام(٢٩) لم يتعرض بعد ذلك حجاج الركب الشامى لاعتداء القبائل إلاّ بعد ضعف الخلافة الفاطمية ، ونقص إرسال الأعطيات إلى مكان الطرق .

ففى سنة ٤١٧هـ تعرض حجاج الركب الشامى لاعتداء قبيلة حرب شمال المدينة ، وقطعوا عليهم

الطريق ومنعوا عنهم الماء ، وطلبوا منهم أن يدفعوا ضريبة سنتين ، ودفع الحجاج ما معهم من أموال من أجل أن يسمحوا لهم بمواصلة السير الى مكة (٣٠)

وفى سنة ٥٤٣هـ أصبح خطر قبائل حرب يزداد عنفا فى طريق ركب الحاج الشامى . فقد اعتدوا على حجاج هذه الركب وأخذوا ما معهم من أموال وأمتعة ومنعوا عنهم الماء (٣١) .

وحينما ازداد خطر الأعراب بدأ حجاج الركب الشامى فى سلوك طريق غير الطريق الذى اعتادوه خشية اعتداء القبائل (٣٢) .

وفى سنة ٥٧٢هـ قام السلطان صلاح الدين بدفع الأعطيات التى فرضتها القبائل التى تقطن فى طريق الركب الشامى . وبهذا أمن الطريق من خطر هذه القبائل (٣٣) .

وفى سنة ٥٨٣هـ بدأ سلاطين الدولة الأيوبية إرسال حاميات عسكرية لحماية الحجاج فى طريق الحج المختلفة (٣٤) .

ولعل وجود ظروف معيشية قاسية أدت إلى تعرض ركب الحاج الشامى إلى اعتداء الأعراب عليه ، فقد هلك الكثير من منتوجات المزارع فى الهلال الخصيب بسبب انتشار الجراد سنة ٦٢٠هـ ولربما دفع هذا الحدث الأعراب إلى نهب حجاج الركب الشامى ، إلاّ أن أمير الركب استطاع أن يستميلهم بمال وثياب وزعت عليهم ، مما جعل الركب يسلم منهم (٣٥) .

ثانيا : طريق حجاج مصر :

أ ـ وصف الطريق :

يبدأ هذا الطريق من مدينة **الفسطاط** ،حيث يتجمع الحجاج من جميع أمصار شمال قارة افريقيا والأندلس . ويجدر بنا أن نشير إلى أن ركب الحاج المصرى قد بدأ منذ سنة٢٠هـ .وبعد خروج حجاج الركب المصرى من مدينة **كلفسطاط** يتجهون إلى البركة ، ثم يرحلون من البركة إلى السويس ، ومنها إلى نخل بسيناء (٣٦) . وقد وصف هذه القرية الشاعر المتنبى :

ومرت بنخل وفى ركبها   عن العالمين وعنه غنى(٣٧)

وهذه القرية هى منازل لبنى مرة بن عوف ، ويوجد بها آبار وبرك من الماء يستقى منها الحجاج(٣٨) . ثم يرحل الحجاج إلى أيله « **العقبة** » وتقع على ساحل **القلزم** وككن الحجاج يقيمون فيها يومين لوجود أسواق قديمة بها ، ويتوفر فى أيله المأكل والمشرب (٣٩) .

ومن **أيله** يرحل الركب إلى حقل ، وهى مدينة تقع على ساحل بحر القلزم أيضا ، وبها ماء عذب ، ثم يرحلون بيد ذلك متجهين إلى مدين ، وبها ماء عين مغارة ، وتوجد بها آثار قديمة لرسول الله شعيب عليه السلام ، ويقيمون فيها ويتزودون بمائها (٤٠) .

ثم يرحلون إلى عيون القصب وتكثر بها العيون ، وفى بعض الأحيان تضعف منابع هذه العيون ، والسبب يعود إلى كمية الأمطار التى تسقط على شمال الجزيرة . ولقد اشتهرت هذه المنطقة بزراعة نبكت القصب (٤١) . ومن هناك يرحلون إلى مكان يسمى المويلحة ، وماؤها شديد الملوحة ، وبعدها يرحلون إلى الأزلم ، وتشتهر بأسواقها ويقيمون فيها يوما وكحدا . ثم يرحلون الى الوجه وتقع على بحر القلزم ، ثم يتجهون إلى أكرى وهى منطقة وعرة ، وهنا يصادف حجاج الركب المصرى صعوبة فى وصولهم إلى هذه القرية لخروج ماء البحر الي اليابس (٤٢) .

ومن أكرى يرحل حجاج الركب المصرى إلى الحوراء ،وتقع على ساحل البحر الأحمر أيضا ، ثم يرحلون إلى نبطة وبها ماء عذب يتزودون منه ، ثم يرحلون إلى ينبع حيث يقيمون يومين . وبينبع آبار عديدة ، ومنها يرحلون إلى بدر ، حيث يلتقى الركب المصرى بالركب الشامى (٤٣) وبعد اجتماعهم فى بدر يرحلون إلى رابغ ، وهى محاذية للجحفة التى تعتبر ميقات أهل مصر : فيحرمون منها . ويخرجون مهللين مكبرين متجهين إلى خليص التى تمتاز بمائها العذب (٤٤) ثم يرحلون منها إلى عسفان ، ومن عسفان يتجهون إلى بطن مر ، وفيها يستعدون لدخول مكة المكرمة وعند دخولهم مكة المكرمة يدخلونها من مكان يسمى الشبيكة (٤٥) .

ب : الخدمات :

وفى سنة ٧٩هـ أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان أموالا مع أمير الحج من أجل أن يقوم على إنفاقها على كل من تضرر من الحجاج . ولقد تضرر حجاج الركب المصرى هذا العام بسبب هطول أمطار كثيرة فى طريق ركبهم (٤٦) .

وفى سنة ٩١هـ أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بتعبيد طريق ركب الحاج المصرى . وأمر كذلك بحفر الآبار فى بعض القرى على هذا الطريق (٤٧) .

وفى سنة ٩٧هـ أمر الخليفة سليمان بن عبد الملك عامله فى مصر بتوزيع المال على الحجاج القاصدين مكة (٤٨) .

وفى سنة ٩٩هـ أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بتجديد تعبيد طريق ركب الحاج المصرى (٤٩) وفى سنة ١٠٤هـ . أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك بحفر الآبار فى طريق ركب الحاج المصرى (٥٠) .

ويمكننا القول بأن الخدمات على طريق الركبة المصرى توقفت من سنة ١٠٥هـ . إلى سنة ١٣٤هـ . وفى سنة ١٣٥هـ . أمر الخليفة أبو العباس السفاح بإصلاح طريق الركب المصرى . وأمر كذلك بحفر الآبار فى منطقة الوجه ؛ لأنه علم بأن الأعراب منعوا الحجاج من شرب الماء العذب (٥١) .

وفى سنة ١٣٧هـ أمر الخليفة أبو جعفر المنصور عامله على مصر بأن يقوم بتوزيع أعطيات للأعراب القاطنين بطريق الركب المصرى ، كما أنه أمر ببناء المساجد فى هذا الطريق(٥٢) .

وفى سنة ١٦١هـ أمر الخليفة المهدى عامله فى مصر بناء محطات فى طريق الحاج المصرى ، كما أمر بتعبيد الطرق ، وبتوزيع أموال على الأعراب الموجودين على طريق الركب المصرى (٥٣) .

وفى سنة ١٦٥هـ أمر أيضا صاحب البريد بإقامة محطات للبريد فى طريق الحاج المصرى ، ووزع فيها البغال والحمير الخاصة بهذا الغرض .(٥٤)

وحينما آلت الخلافة إلى هارون الرشيد ، أمر فى سنة ١٦٥هـ . عامله فى مصر بإصلاح طريق الحاج المصرى ، وبتوزيع أموال على الأعراب القاطنين فى هذا الطريق (٥٥) .

وفى سنة ٢٠٩هـ كان والي مكة صالح بن العباس قد كتب إلى المأمون يستأذنه فى حفر الآبار وعمل البرك فى طريق ركب الحاج المصرى ، ولقد تم عمل بركة فى السويس ، حيث أن حجاج الركب المصرى لم يجدوا ماء فى السويس فى السنوات التى قبلها (٥٦) . وفى سنة ٢٦٠هـ . استطاع والي مصر أحمد بن طولون إصلاح ركب الحاج المصرى ؛ ولقد وزع أعطيات على الأعراب القاطنين على هذا الطريق (٥٧) .

فى سنة ٣٢٥هـ اهتم محمد بن الأخشيد بطريق الحاج المصرى وقدمت أعطيات للأعراب القاطنين على هذا الطريق من قبله(٥٨) .

وفى سنة ٣٦٣هـ اهتم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بطريق الحاج المصرى وقام بتوزيع أعطيات على سكانةهذا الطريق ، كما شملت أعطياته سكان مكة ايضا (٥٩) . وفى سنة ٤١٠هـ وفى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى أعيد إصلاح طريق الحاج المصرى (٦٠) .

وفى سنة ٥٥٥هـ حج أسد الدين شيركوه مع حجاج الركب المصرى ووزع على الأعراب أعطيات كثيرة (٦١) .

وفى سنة ٥٧٢هـ أرسل صلاح الدين الأعطيات والصدقات لتوزيعها على سكان أهل القرى المجاورة لمكة ، ولسكان مكة ، وألغى المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج من قبل والي مكة والأعراب الموالين له ، ولقد دفع لوالى مكة ألفى دينار وألفى أردب من القمح ، وغدت تدفع وتحمل الى والي مكة كل عام .(٦٢) .

وفى سمة ٦٤٥هـ أرادت شجرة الدر الحج ، وفضلت الذهاب عن طريق البر ، فأمرت بإصلاح الطريق وحفر الآبار وبناء البرك على طول طريق الحاج المصرى ، ولقد قامت أيضا بتوزيع الهدايا والأعطيات على الأعراب القاطنين بطريق الحج المصرى .(٦٣) وبذلك أحيت شجرة الدر طريق الحاج المصرى ، بعد أن فسد مدة من الزمن . وبعد هذا التاريخ عاد الخراب إلى هذا الطريق ولم يستخدم من قبل الحجاج إلاّ بعد أن أحياه الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦هـ .

جـ : اعتداءات القبائل :

من المعلوم أن طريق الحاج المصرى لم تحدث فيه اعتداءات كبيرة ، ويعود هذا إلى اهتمام الطولونيين بطريق الحاج المصرى فى الفترة الزمنية التى حكموا فيها مصر . ولقد استمر هذا الاهتمام من قبل الإخشيديين ، وبعد أن سيطرت الدولة الفاطمية على مصر ، اهتم خلفاؤها بطريق الحاج المصرى ، وقدموا الأعطيات ولم تحدث اعتداءات القبائل إلاّ بعد ضعف الخلافة الفاطمية .

وفى سنة ٤٦٢هـ اعتدت قبائل حرب المقيمة فى الجوف على ركب الحاج المصرى ومنعوا حجاج الركب من شرب الماء (٦٤) .

وفى سنة ٥١٢هـ اعتدت القبائل العربية « حرب » على حجاج الركب المصرى وقطعوا عليهم الطريق ومنعوهم من دخول مكة (٦٥) .

وفى سنة ٥٤٥هـ اعتدت القبائل العربية على ركب الحاج المصرى واستولوا على أموالهم وهلك من الحجاج عدد كبير ، وفر البعض الآخر ووصلوا الى المدينة (٦٦) .

وفى سنة ٥٥٣هـ علم حجاج الركب المصرى بتربص الأعراب القاطنين فى الطريق لهم ، وأدى ذلك إلى أن يغير حجاج الركب المصرى طريقهم ، ولذلك وجدوا صعوبة شديدة ولكنهم نجوك من شر الأعراب (٦٧) .

وفى سنة ٥٦٠هـ اعتدى الأعراب على حجاج الركب المصرى وقطعوا عليهم الطريق وسلبوا أموالهم وأمتعتهم . (٦٨) .

وفى سنة ٥٨٢هـ اعتدى عبيد الأشراف أمراء مكة على حجاج الركب المصرى وقطعوا عليهم الطريق ونهبوا أموالهم .(٦٩) .

د : الطريق البحرى :

لقد أخذت عيذاب بعد انتقال الدولة الفاطمية الى مصر أى منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ـ تقوم بدور رئيسى فى تجارة الشرق الأقصى والبحر الأحمر . ويرجع ذلك التطور فى تاريخ ميناء عيذاب إلى سياسة الفاطميين الحكيمة فى حسن معاملة التجار والترحيب بهم ، وفى توفير الأمن وكلاستقرار فى دولتهم التى سيطرت بسيادتها على المغرب ومصر والشام والحجاز على هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة فى الشرق الأوسط والتى تتحكم فى تجارة المرور بين الشرق الأقصى وأوروبا .(٧٠) كما يرجع ذلك إلى عمق وغزارة ميناءة عيذابة وخلوها من الشعاب المرجانية التى يمتلئ بها البحر الأحمر ، والتى كانت من أكبر الأخطار التى تتعرض لها الملاحة فى هذا البحر ؛ ولذلك كان البحارة والتجار يفضلون الرسوّ فيها عند مقدمهم من عدن وعند رحيلهم منها (٧١) .

وفى منتصف القرن الخامس الهجرى ازدادت أهمية ميناء عيذاب التجارية ؛ فأصبحت القاعدة الرئيسية لتجارة البحر الأحمر بعد أن اتخذها تجار القلزم المركز الرئيسى لنشاطهم بدلا من عدن (٧٢) .

ثم ما لبثت أن ازدادت أهميتها أكثر وأكثر ابتداء من سنة ٤٦٠هـ بسبب الشدة العظمى التى قاستها مصر فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ؛ وذلك لخراب الوجه البحرى وتحول قوافل التجارة وركب الحجاج المصريين والمغاربة من طريق شبه جزيرة سيناء وشمال الحجاز إلى طريق النيل من الفسطاط حتى قفط أو قوص ، ومنها كانوا يعبرون الصحراء الشرقية إلى ميناء عيذاب . ومن عيذاب يعبرون البحر الأحمر إلى جدة بواسطة الجلاب .(٧٣) .

وقد استمر استخدام الحجاج المصريين وكلمغاربة لهذا الطريق زيادة على مائتى سنة إلى أن كانت سنة ٦٦٦هـ ، ففى هذه السنة أخرج السلطان بيبرس قافلة الحج منةالبرّ أى عبر شبه جزيرة سيناء ، وبذلك قل سلوك الحجاج لطريق عيذاب ؛ غير أن بضائع التجار استمرت تحمل من عيذاب إلى قوص إلى أن أبطل ذلك بعد سنة ٧٦٠هـ بسبب خراب الصعيد (٧٤) وبعد انتهاء الشدة العظمى ظل طريق **قوص ـ عيذاب ـ جدة** الطريق الذى يسلكه حجاج مصر والمغربةبسبب تزايد أهمية ميناء عيذاب كقاعدة رئيسية لتجارة البحر الأحمر بعد أن اتخذها تجار الكارم المركز الرئيسى لنشاطهم(٧٥) فقد شهد ابن جبير فى رحلته إلى الأراضى الحجازية سنة ٥٧٩هـ بأن عيذاب كانت من أحفل مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها بالاضافة إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة ، على الرغم من كونها فى صحراء لا نبات فيها ، وأنه لا يؤكل شىء فيها إلاّ مجلوب ؛ لأن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كثير ولا سيما مع الحجاج ؛ لأن لهم على كل حمل طعاما يحملونه ضريبة معلومة خفيفة المئونة ، بالإضافة إلى الوظائف المكوسية التى كانت قبل أن يرفعها صلاح الدين (٧٦) .

وفضلا عن ذلك فان مملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد ملكها بلدوين الأول قد أخذت تؤمن حدودها من ناحية الجنوب الشرقى ؛ فقد قام بلدوين الأول بالسيطرة على صحراء النقب ، ففى سنة ١١١٥م قام بتشييد حصن الشوبك فسيطر منه الصليبيونةعلى المنطقة الممتدة من البحر الأحمر حتى خليج العقبة . وفى العام التالى شيد حصنا آخر فى أيله على ساحل خليج العقبة ، كما بنى قلعة فى جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيله فى خليج العقبة ، وبذلك يكون قد أغلق الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام والحجاز ، وعزل مصر عن بقية العالم الإسلامى فى الشرق (٧٧) .

وبذلك استمر طريق **قوص ـ عيذاب ـ جدة** الطريق الرئيسى لحجاج مصر والمغرب زيادة عن مائتى سنة ، على الرغم من الأخطار والأهوال التى كان يتعرض لها الحجاج فى قطعهم لهذا الطريق فى الذهاب والعودة فى الطريق من قوص إلى عيذاب . وكان الحجاج يقطعونه فى سبعة عشر يوما .

وفيه كان يفتقد الحجاج الماء ثلاثة أيام متتالية وتارة أربعة .(٧٨) . وفى عيذاب يعانى الحجاج من أهلها الأمرّين نلهلها على الحجاج ـ كما يذكر ابن جبير ـ احكام الطوكغيت (٧٩) . وأما طريق العودة من جدة الى عيذاب فيصفه ابن جبير على هذا النحو « والركوب من جدة إليها آفة للحجاج عظيمة إلا الأقل منهم ممن يسلمه الله عز وجل . وذلك أن الرياح تلقيهم على الأكثر فى مراسى بصحراء تبعد منها مما يلى الجنوب فينزل إليهم البجاه وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال فيكرون منهم الجمال ويسلكون بهم غير طريق ماء فربما ذهب أكثرهم عطشان وحصلوا على نحلتهم متنفقة أو سواه وربما كان من الحجاج من يتعسف تلك المجهلة على قدميه فيضل ويهلك عطشا والذى يسلم منهم يصل الى عيذاب كأنه منتشر من كفن . شاهدنك منهم مدة مقامنا أقواما قد وصلوا على هذه الصفة فى مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة (٨٠) أى للمتوسعين وأكثر هلاك الحجاج بهذه المركسى ومنهم من تساعده الريح الى أن يحط بمرسى عيذاب وهو الأقل .(٨١) .

الا أنه منذ سنة **٥١٢**هـ بدأ اهل عيذاب يأخذون أجورا باهضة على الحجاج الذاهبين إلى مكة(٨٢) كما انهم ككنوا يقومون بشحن الجلاب زيادة عن عدده . حتى أن الحجاج كانوا يجلسون بعضهم على بعض وهذا ما كان يعبر عنه أصحابه الجلاب بقولهم « علينا بالألواح . وعلى الحجاج بالأرواح » وهذا المثل الذى أصبح متعارفا فيا بينهم (٨٣) .

ومن هذه الفترة الزمنية بدأ الحجاج يلاقون الأهوال من أهل عيذاب فى أخذ الأجور الباهظة واستمر الأمر على هذا الحال إلى أن أمر صلاح الدين الأيوبى سنة **٥٨٢**هـ أهالى عيذاب الذين كانوا يتحكمون فى نقل الحجاج برفع زيادة إيجار الجلاب وأن يكون فى نفس الوقت عدد ركاب الجلاب معتدلا كما أنه أبطل المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج وأغدق العطيات على أهل عيذاب (٨٤) . وعلى هذا النحو استمر طريق قوص ـ **عيذاب ـ جدة** طريق حجاج مصر والمغرب حتى نهاية الحقبة الزمنية لهذا البحث .

بعد أن يصل الحجاج إلى جدة ينزلون من الجلاب ويبدأ الأعراب الذين يسكنون جدة يتحكمون فى سعر نقلهم إلى مكة المكرمة بوكسطة الدواب . ولم تظهر ظكهرة زيادة إيجار هذه الدواب من قبل هؤلاء الأعراب إلا منذ بداية القرن الخامس الهجرى .

وقد استمرت هذه المساوئ من الأعراب تجاه الحجاج إلى أن قام صلاح الدين بإسقاط ما كان يأخذه شريف مكة من مكوس الحجاج بجدة مقابل تعويض عنها ، وبتوزيع الأعطيات على الأعراب الذين كانوا ينقلون الحجاج من جدة الى مكة . فمنذ ذلك الحين أصبحوا يأخذون من الحجاج أجورا معتدلة (٨٥) .

غير أن هؤلاء الأعراب كانوا يعودون إلى المغالاة فى أخذ الأجور من الحجاج والإساءة إليهم عندما كانت تنقص أعطياتهم أو عندما كانت لا تصل إليهم (٨٦) .

وكان هؤلاء الأعراب تابعين لشريف مكة ، فهو الذى كان يتحكم فيهم ويحرضهم على المغالاة فى معاملة الحجاج (٨٧) .

وتجدر الاشارة بنا إلى أن ضعف الخلافة هو الذى دفع شريف مكة الى فرض المكوس على الحجاج وإلى استغلالهم بواسطة الأعراب الموالين له .

وهكذا نرى أن طريق حجاج الشام وطريق حجاج مصر كانا يلتقيان عند بدر ، وأن وجوه الشبه بين الطريقين المختلفين ككنت كثيرة ، فكان حجاج البلدين يقيمون على الطريق البرى فترة أطول ، حيثما توفر الماء العذب ، والغذاء الصالح ، ويبكرون بالرحيل كلما قل الماء ، أو ساءت الطبيعة ، أو ندر الغذاء ، وقد توفر لحجيج مصر طريق بحرى بالإضافة الى الطريق البرى .

كما تشابه الطريقان البريان فى تعرض الحجاج لاعتداءات القبائل ، ومعاناة حجاج البلدين فى فترات مختلفة من فرض المكوس والإتاوات العالية عليهم من قبل شريف مكة وأعوانه من الأعراب ، وكان ذلك يزداد كلما ضعفت الخلافة المركزية ، ويقل أو يختفى كلّما قويت الخلافة المركزية ، وكذلك كان الاعتداء على الحجاج يقل كلما اهتمت حكومة أى من البلدين ـ الشام ومصر ـ بترضية قبائل العرب بالأعطيات والأموال ، أو بتوفير الحماية العسكرية للحجيج من رعيتها .

الهوامش

(١) ياقوت : معجم ، جـ ٤ ص ٢٦٠ .
(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٤٤١ .
(٣) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٣١٠ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٠٧ .
(٥) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٤٥٤ .
(٦) الزبيدى : تاج العروس ، مادة زيزا .
(٧) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٤٥٥ .
(٨) ياقوت : معجم ، جـ ٤ ، ص ١٥٧ .
(٩) على المالكى : الشامى الصغير ، ورقة ٣٦ ـ انظر : طريق الركب الشامى ، خريطة رقم « ٢ » .
(١٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٤٥٢ .
(١١) المصدر السابق جـ ٤ ، ص ٤٥٥ .
(١٢) الطبرى : تاريخ جـ ٦ ، ص ٥٢٩ .

(١٣) المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٥٥٣ .
(١٤) اليعقوبى : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٥٢ .
(١٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ، ص ٤٥٩ .
(١٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٤٨٠ .
(١٧) اليعقوبى : تاريخ جـ ٢ ص ٣٨٩ .
(١٨) الطبرى : تاريخ جـ ٨ ، ص ١٦٢ .
(١٩) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢١٩ .
(٢٠) المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .
(٢١) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٤٦ .
(٢٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ، ص ١٢٩ .
(٢٣) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٢٩ .
(٢٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ٧٨ .
(٢٥) المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٣٨١ .
(٢٦) المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٣٩١ .
(٢٧) المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٥٩ .
(٢٨) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٤٤ .
(٢٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٥٨٧ .
(٣٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٣٥٦ .
(٣١) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٦٠ .
(٣٢) المصدر السابق ، ص ٢٦١ .
(٣٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .
(٣٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص٣٥٢ .
(٣٥) الأشرف الغسانى : العسجد المسبوك ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥ .
(٣٦)ةالجزيرى : درر الفوكند ، ص ٤٤٩ .
(٣٧) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ، دار الشعب بمصر ، ١٩٧٠ م جـ ١٧ ، ص ٦٣٤٣ .
(٣٨) ياقوت : معجم ، جـ ٥ ، ص ٢٧٤ .
(٣٩) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٩٢ .
(٤٠) الجزيرى : درر الفوائد ص ٤٥٠ .
(٤١) المصدر السابق ، ص ٤٥٤ .
(٤٢) ياقوت : معجم ، جـ ١ ، ص ٤٥١ .
(٤٣) على المالكى : الشامى الصغير ، ورقة ٣٦ .
(٤٤) على المالكى : الشامى الصغير ورقة ٣٦ .
(٤٥) المصدر السابق ، ص ٤٥٣ .
(٤٦) الطبرى : تاريخ : جـ ٦ ، ص ٦٨٠ .
(٤٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٥٥٤ .
(٤٨) المصدر السابق جـ ٥ ، ص ٢٦ .
(٤٩) الطبرى : تاريخ ، جـ ٦ ، ص ٥٥٣ .

(٥٠) المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٢١ .

(٥١) الطبرى : تاريخ ، جـ ٧ ، ص ٤٦٥ .

(٥٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٤٨٠ .

(٥٣) المصدر السابق جـ ٦ ، ص ٥٠ .

(٥٤) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٥٥) لجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢١٩ .

(٥٦) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٢١ .

(٥٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، المطبعة الميمنية بمصر ، ١٣١٠ هـ . ، جـ ١ ، ص ٦٩ .

(٥٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٨٥ .

(٥٩) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٤٦ .

(٦٠) المصدر السابق ص ٢٥٢ .

(٦١) ابو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ، جـ ٢ ، ص ٤٢ .

(٦٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١١٢ . ـ ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨ .

(٦٣) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٥ . ـ محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية ، ص ٣١ . ـ محمد ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، جـ ١ ، ص ٦٩ .

(٦٤) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٥٦ .

(٦٥) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٥٩ .

(٦٦) المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .

(٦٧) المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٦٨) المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

(٦٩) المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

(٧٠) احمد دراج : عيذاب ، مجلة نهضة أفريقية ، السنةالأولى العدد التاسع ، يوليو ١٩٥٨ م .

(٧١) احمد دراج : عيذاب مجلة نهضة افريقية السنة الأولى العدد العاشر اغسطس ١٩٥٨

ـ عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العبكسية ، رسالة دكتوراه ، لم تطبع ، ص ١١٨ .

(٧٢) ابن أيبك الدوادارى : الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية وهو الجزء السادس من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠ هـ . ـ ١٩٦١ م ، ص ٣٨٠ . ويشير المؤرخ فى حوادث سنة ٤٠٦ هـ . أى قبل الشدة المستنصرية الى تأخر تجار الكارم الى عيذاب .

(٧٣) ناصر خسرو : سفر نامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، ص ٧٢ .

(٧٤) المقريزى : الخطط ، طبعة جديدة بالأوفست ، مؤسسة الحلبى ـ القاهرة ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .

(٧٥) أحمد دراج : عيذاب مجلة نهضة افريقية السنة الأولى العدد العاشر ، اغسطس ١٩٥٨ م

ـ عطية القوصى : اضواء جديدة على تجارة الكارم ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٢ ، سنة ١٩٧٥ م ص ١٧ ، ٢٢ .

(٧٦) ابن جبير : الرحلة ، طبعة بيروت ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ص ٤١ .

ـ المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ .

(٧٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية الطبعة الثالثة ١٩٧٥ م جـ ١ ، ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٧٨) ابن جبير : الرحلة ص ٣٧ ، ٤١ المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص٢٠٢ .

(٧٩) ابن جبير : الرحلة ص ٤٣ .

(٨٠) المصدر السابق ، ص ٤٢ « آفة الحجاج » .

(٨١) ابن جبير : الرحلة ص ٤٣ .

(٨٢) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٥٤ .

(٨٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٤ .

(٨٤) المصدر السابق ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٨٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٩ .

(٨٦) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٨٧) الفاسى : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ١١٨ .

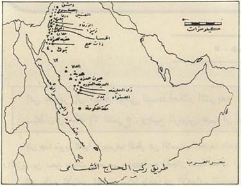
دمشق
الصنمين
الزرقاء
زيزاء
الحسا
ذات حج
تبوك
العلا
هدية
عيون حمزة
المدينة المنورة
ذي الحليفة
الصفراء
بدر
مكة المكرمة
كيلومترات
بحر العرب

طريق ركب الحاج الشامى

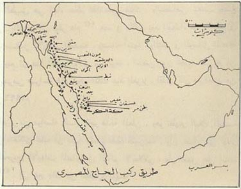
القاهرة
السويس
عيون القصب
المويلحة
الأزلم
الوجه
نبط
ينبع
بدر
رابغ
خليص
عسفان
بطن مر
مكة المكرمة
كيلومترات
بحر العرب

طريق ركب الحاج المصرى